

الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب

د. عامر خليل الجراح

المعهد العالي للغات الحيّة، جامعة ماردين آرتوقلو- تركيا. amer.j.80@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/12/30

تاريخ القبول: 2019-08-27

تاريخ الاستلام: 2019-08-10

الملخص: عُرِفَت التداولية في أحدث تجلياتها بأنها دراسة "استعمال اللغة في التواصل والمعرفة"، وهي بذلك وبحكم خروجها على البنيوية التي تدرس اللغة منغلقة على نفسها بعيداً عن الاستعمال تجعل من الإحالة مفهوماً بارزاً من مفوماتها المتعددة، ونحن في هذا البحث سنسعى إلى إقامة البناء النظري للإحالة التداولية، ثم نعمل على إسقاطها على البلاغة والنقد العربيين بغية الكشف عن جانبيهما التداولي التواصل الذي يتمثل في تحقيق الإفهام، ونحن ندرك أن جُلّ البحوث التي تناولت الكلام على البلاغة والنقد تطرقت للجانب الفني الجمالي وأغفلت الجانب التداولي النفعي.

ظهر لنا في هذا البحث أنّ مفهوم الإحالة التداولية تجلّى في البلاغة والنقد في معرض الحديث عن المعنى؛ صحةً أو خطأً، وتقصيراً أو مبالغةً أو غلوّاً، مع العلم أنّ مصطلح الإحالة لم يرد عند العرب، إنما عرضوا لما يؤدي إليه، ونذكر هنا مصطلحات بلاغية ونقدية من قبيل التقصير عن الغايات، والتميم، والمبالغة، وإصابة التشبيه، وصحة الدلالة، والغلط، والغلو، والإسراف، وغير ذلك من المصطلحات التي تبيّن لنا أنها تنخرط في ثلاثة مسالك رئيسية: أولها (المقاربة)؛ بأن يكون المعنى أو الكلام قريباً إلى مرجعه، وثانها (المطابقة)؛ بأن يطابق الكلام مرجعة تماماً أو قريباً من التمام، ونعني في التقريب المبالغة القريبة من المطابقة، وآخر المسالك (المفارقة)؛ بأنّ يتعد الكلام عن مطابقة المرجع كما في المبالغة البعيدة أو الغلو. الكلمات المفتاحية: الإحالة، التداولية، البلاغة، النقد، المبالغة، الغلو.

The Pragmatic Reference in the Arab critical and rhetorical heritage

Abstract

Pragmatics, in its most recent manifestations, has been defined as "the study of the way in which language is used to express or communicate for knowledge." So, by this and by its disagreement to structuralism which is related to the study of language, Pragmatics is also devoted to making these rhetorical speeches as successful and effective. In other words, it is simply can be said that pragmatics, in its broad and narrow definition, is the mechanism of treating the way of giving understanding and comprehension, where the impact of referencing is justified in achieving comprehension. In this research, we are going to compose the theoretical structure of

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
the pragmatic reference and then to apply it on the Arab rhetoric and critique in order to clearly show their communicative and pragmatic side that leads to achieving understanding. However we see that most of studies focused on the aesthetic and artistic side rather than the rhetoric and pragmatic one.

and whilst we explain that the concept of pragmatic reference in rhetoric and critique had been only mentioned in the texts that focused on meaning and denotation; for instance, right or wrong, incomplete, exaggerated, or hyperbolic meaning. knowing that the (reference) idiom was not used by Arabs, whereas they used another rhetorical and critical idioms which led to it such as elision, completion, exaggeration, simile veracity, denotation trueness, mistake, hyperbole, and many other idioms which are divided into three main topics as follows: First, Approximation: where the meaning fits its reference. Second, Analogy: a feature that is totally similar or similar to an extent, as we see in close exaggeration. Last, Paradox: a statement containing self-referenced and contradictory ideas such as hyperbole.

Keywords: Rference, Pragmatics, rhetoric, critique, exaggeration, hyperbole.

المبحث الأول: الإحالة في الدرس التداولي

برزت الأهمية الكبرى للمرجع داخل الشبكة التداولية بصورة جلية من خلال الذهاب إلى عدّ التداولية بمنزلة نظرية أنجلوسكسونية تتوجّه نحو الواقعة التداولية في مقابل الثقافات الإغريقية اللاتينية والكاثوليكية التي تميل أكثر إلى التجريد¹، ومن خلال كونها، في أجلى صورها، ثورة على الانغلاق البنيوي عند دي سوسير؛ إذ كانت "القطيعة بين القيمة المرجعية للعلامة ومدلولها أو معناها جذرية؛ ذلك لأن العلامة. بالنسبة إلى سوسير، توحد ليس بين شيءٍ واسمٍ، لكن بين متصوّرٍ وصورةٍ سمعية"²، ونشير كذلك إلى أن الإشارات³ التي تمثل كلمةً مفتاحًا في التداولية تتصل بالمرجع اتصالاً وثيقًا؛ إذ لا يمكن تحليلها دون وجود مرجع تحيل إليه، ولعل نظرية أفعال اللغة أوثق صلةً بالإحالة والمرجع؛ إذ "يُطرح مشكل الإحالة عند أوستين J.Austin (1962) وفي التداولية عمومًا على مستوى واقع العمل اللغوي... [بيد أن أوستين] لا يعتبر أن المشكل يتمثل في الصلة بين الحقيقة والمرجع [الإحالة]، بل يتمثل المشكل عنده في مصداقية المقصد التي تؤثر في

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
شروط النجاح، وهي شروطٌ متماثلةٌ بما أن المرجع لا يقع بالطريقة ذاتها، أمّا عند سيرل J.Searle (1969) فتحتلّ الإحالة، على العكس من ذلك مجالاً من التدبّر فسيحاً... [إذ تُعدّ] أحد معايير تصنيف الأعمال اللغوية⁴.

وننوّه إلى أن ممّا لا بدّ منه- ونحن نتكلّم على تداول اللغة الفنيّة، أو الطفيلية بحسب سيرل، أو غير الجدّية بحسب أوستين- أن نبيّن أن العلاقة بين الإحالة إلى مرجع لا تتسم بعدم قابليتها للانفصام كما هو حالها في عُرف النظرية التقليدية للعلامة فحسب، بل إنها لتسعى إلى إنشاء وقائع وعلاقاتٍ جديدةٍ، ويشرح لنا سيرل كيفية ذلك بمبادرةٍ هي أشبه بطريقته في معالجة الأفعال المتضمّنة في القول أطلق عليها اسم (مسلمة التشخيص) Identification مرتكزاً في ذلك على أعمال دونلان Donnellan الذي يميّز العبارات الحملية القسوية (اللسانية) من العبارات المرجعية (التداولية)، فمن خلال العبارات الحملية المتّفق عليها بين المتحدثين يصل المتكلّم إلى تحديد ما يريد قوله، ولا يهّم بعد ذلك ما إذا كان الإخبار مطابقاً للواقع أم لا⁵، بيد أن أوستين، في ظلّ الانفصام أو عدم المطابقة كما بيّنا آنفاً، جعل جلّ عنايته بآثار التلقّظ أو بنجاح عمل الإخبار (الإفهام)⁶ منطلقاً هو وسيرل في معالجهما من نظرةٍ تداوليةٍ نفعيةٍ (براكماتية)، فالإحالة، وهي مفهوم تداولي، ذات تعلق وثيق بأبرز المفهومات التداولية الأخرى مثل أفعال الكلام التي تنقل الحدث من الكلام إلى الواقع، والمحدّدات الإشارية التي تتطلّب مرجعاً خارجياً تُحال إليه لفهم المراد منها.

تمثّل الإحالة أحد أبرز الجوانب الإخبارية التواصلية التي منها قواعد المحادثة ومراعاة الاستعمال⁷، ونشير إلى أنّ للتداولية جوانبٍ أخرى ذات أبعادٍ تأثيرية فكرية كالججاج والتأويل، أو تأثيرية سلوكية كأفعال الكلام⁸، وهذا يتناسب مع أحدث تعريفاتها بأنها دراسة "استعمال اللغة في التواصل والمعرفة"⁹؛ التواصل بما هو غاية بسيطة، والمعرفة بما هي غاية معقّدة؛ إنّها محاكاة وتأطير موسّع لما عُرف في التراث البلاغي والنقديّ عند العرب بخطاب العامّة وخطاب الخاصّة، أو مراعاة المقامات.

المبحث الثاني: تجلّيات الإحالة في البلاغة والنقد العربيّين

المؤلف: د. عامر خليل الجراح عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب

ليس الحديث عن الإحالة في تراثنا البلاغي والنقدي حديثاً صريحاً؛ بمعنى أنّ مصطلح الإحالة لم يُذكر، ولم يكن البلاغيون والنقاد على وعيٍ به؛ إنّما يتجلى مفهومها في معرض حديث غير مباشر، وفي سياقات مختلفة تدور أغلبها حول الحديث عن المعنى والدلالة: صحةً أو خطأً، وتقصيراً أو مبالغةً أو غلوّاً. سنعمد ههنا للكشف عن أشكال المعنى في ظل تسليط الضوء على إحالة الكلام إلى مرجعه، وهذا الكشف ينتهي بالضرورة إلى بيان الأبعاد التداولية للبلاغة والنقد من جهة جانبيها الإحاليّ.

يتجلى البعد الإحاليّ التداولي في البلاغة والنقد العربيّين في عدّة معارض؛ منها ما ورد عن ابن طباطبا (322هـ) في تضاعيف حديثه عن (التقصير عن الغايات)، فذكر أنّ "من الأبيات التي قصّر فيها أصحابها عن الغايات التي أُجروا إليها، ولم يسدّوا الخلل الواقع فيها معنى ولفظاً قول امرئ القيس [من الطويل]:

فلساقِ أهُوبٌ وللسوطِ درّةٌ وللزجرِ منه وقعٌ أخرَجَ مهذبٌ¹⁰

ف قيل له: إن فرساً يحتاج إلى أن يُستعان عليه بهذه الأشياء لغير جوادٍ... وقول امرئ القيس [من المتقارب]:

وأركبُ في الروعِ خيفانَةً كسا وجهها سَعَفٌ مُنْتَشِرٌ¹¹

شبه ناصبتها بسعف النخل لطولها، وإذا غطّى الشعر العين لم يكن الفرس كريماً¹²، فتلك الصفات لم تُعدّ من باب الخطأ في الإحالة إلّا لما كان الخطاب الشعريّ في مقام الفخر الذي يستلزم أن تُستثمر فيه اللغة أعلى غايات الوصف ولا تقصّر عنها، فالتقصير كما بدا أحال الوصف من النجابة والأصالة إلى ما دون ذلك، فالمتكلم/الشاعر لم يوفّق في إحالة الكلام/الشعر إلى مرجعه المناسب. ومن ذلك ما ذكره ابن عبد ربّه (328هـ) من قول "الأصمعيّ: سمعتُ حماداً الراوية، وأنشد رجلٌ بيتاً لحسان [من الكامل]:

يُغشَوْنَ حتّى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المُقبل

فقال: ما يُعرف هذا إلا في كلاب الحانات"¹³. وذكر ابن عبد ربّه أيضاً في (باب ما أدرك على الشعراء) أغاليطهم في إحالاتهم، يقول: "مما أدرك على زهير قوله في الضفادع [من البسيط]:

يخرجن من شرباتٍ ماؤها طحلُّ على الجُدوعِ يخفنُ الغمّ والعرقاً¹⁴

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
وقالوا: ليس خروج الضفادع من الماء مخافة الغمّ والغرق، وإنما ذلك لأنهنّ يبتنّ في الشطوط...
وممّا أدرك على المتلمّس قوله [من الطويل]:

وقد أتناشى الهَمّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصبغية مُكْدَم
والصبغية: سِمة للنوق، فجعلها صفة للفحل. وسمعه طرفة وهو صبيٌّ يُنشد هذا البيت، فقال:
استنوق الجمل. فضحك الناس، وصارت مثلاً...¹⁵.

وممّن دعا إلى الدقّة في الإحالة قدامة (337هـ)، وذلك حين طالب ب(الصحة) في التقسيم
والمقابلة والتفسير، وب(التميم)¹⁶، ومن ثمّ عدم التقصير عن الغايات، فيصبح الكلام بمقتضى
ذلك متكامل الأجزاء مفهوماً غير محوجٍ إلى إحالة، فمن التتميم، على سبيل المثال، "قول طرفة [من
الكامل]:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهبي
فقوله: غير مفسدها، إتمامٌ لجودة ما قاله؛ لأنه لو لم يقل: غير مفسدها، لعيب¹⁷، وبالمقابل نجد
يميل إلى ما يخلّ بإحالة الكلام إلى أصله، وذلك حيث كان "الغلوّ [عنده] أجود المذهبين، [ورأى
أنه] هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً"¹⁸، بل إنه بذلك يقدّم جانب الغرابة على
المناسبة التداولية، فيذكر ثلاثة أمثلة للغلوّ¹⁹ في قول المهلهل [من الوافر]:

فلولا الريحُ أسمعُ من بججرٍ صليلِ البيضِ تفرعُ بالذكور

وقول النمر بن تُولب [من البسيط]:

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ أشباهَ سيفٍ قديمٍ إثره بادٍ
تظللُ تحفرُ عنه إن ضربتَ به بَعْدَ الذراعينِ والسّاقينِ والهادي

وقول أبي نواس [من الكامل]:

وأخفتَ أهلَ الشُرْكِ حتّى إنهُ لَتخافُكَ النُّطفُ التي لم تُخلَقْ

ويذكر أن ثمة فريقاً ينكر الغلوّ، ويذهب إلى أنهم مخطئون في إنكارهم على الثلاثة؛ "لأنهم
وغيرهم ممّن ذهب إلى الغلوّ، إنما أرادوا بالمبالغة والغلوّ بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب
المعدوم... المثلّ وبلوغَ النهاية في النعت"²⁰، فالغلوّ أحدث مفارقةً في الواقع، فليس يصحّ أن يُسمع
أهل حجرٍ (الرياض حاليّاً) صوت سليل السيوف في الرقّة، ولا أن يغوص السيف إلى ذلك العمق

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
الذي صوّره النمر، ولا أن تخاف النطف، فمثل هذه الأقوال الغالية أو غير الجدّية بتعبير أوستين
عولجت من قبل قدماء بالبحث عن الأثر (بلوغ النهاية في النعت)، ويتجلى ذلك الأثر، مثلاً، في أن
"في قول أبي نواسٍ دليلاً على عموم المهابة ورسوخها في قلب الشاهد والغائب"²¹.

ويذكر ابن وهب الكاتب (337هـ) ما من شأنه أن يُلمح إلى طلب الإحالة، وذلك فيما
يُكسب الشعر صفة الفوق والحسن والبيان نعني به صحّة المقابلة، وإصابة التشبيه، وجودة
التفصيل، والمشكلة في المطابقة²²، ونراه يذهب في المبالغة مذهب قدماء في الغلو؛ إذ المبالغة في
المعنى عنده "إخراج الشيء على أبلغ غايات معانيه كقوله- عزّ وجلّ:- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ
مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، وربما قالوا بأنه أفقر فقتر علينا، فبالغ الله- عزّ وجلّ- في تقييح قولهم
وإخراجه على غاية الذمّ، ومن المبالغة في المعنى قول الشاعر [من الطويل]:

وفهين ملهى للطيف ومنظرٌ أنيقٌ لعين الناظر المتوسّم

فلم يرضَ أن يكون فهين ملهى، وإن كان ذلك مدحاً لهنّ حتّى قال: (للطيف)؛ لأن اللطيف لا يلهو
إلا بفائق، وقال: (ومنظرٌ أنيقٌ)، وهذا في الوصف مجزئ، فلم يكتف به حتّى قال: (لعين الناظر
المتوسّم)؛ لأن الناظر إذا كرّر نظره وتوسّم، تبيّنت له العيوب عند توسّمه وتكرار نظره"²³، فلم يدع
فوق ذلك شيئاً يُرجع إليه لإدراك مدى الجمال، ويرى ابن وهب أن "للشاعر أن يقتصد في الوصف
أو التشبيه أو المدح أو الذمّ، وله أن يُبالغ، وله أن يُسرف حتى يناسب قوله المحال ويضاهيه، وليس
المستحسن السرف والكذب والإحالة [الاستحالة] في شيءٍ من فنون القول إلا في الشعر... فمما
اقتصد الشاعر فيه قوله [من الكامل]:

يُخبّرك من شهّد الوقيعَة أني أغشى الوغى وأعفُ عند المغنم

وممّا بالغ فيه قوله [من البسيط]:

يطعنهم ما ارتموا حتّى إذا اطّعنوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

فجعل له غايتهم في كل حالٍ من الأحوال: البسالة والشجاعة فضلاً ومبالغةً، وممّا أسرف فيه
الشاعر حتى أخرجته إلى الكذب والمحال، وهو مع ذلك مستحسنٌ قوله [من الطويل]:

فلو تسأل الأيّامَ ما اسمي ما درتُ وأين مكاني، ما عرفن مكاني

تغطّيتُ من دهري بظلّ جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني"²⁴.

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
فابن وهب يعرض لتجليات الإحالة أو درجاتها التي يمكن حصرها في ثلاث: أولاها الاقتصاد الذي تكون فيه درجة الإحالة متوسطةً (المقاربة)، وثانيها المبالغة التي تصل فيها الإحالة إلى أعلى درجة (المطابقة)، وأخرها الغلو أو الإسراف الذي تكون فيه الإحالة في الظاهر منعدمةً (المفارقة)، ويمكن أن نضيف إلى الأخيرة الخطأ غير المتعمد لما كان الغلو خطأ متعمداً، ولنا أن ندخل في الدرجة الثانية من وجوه الحديث التي ذكرها ابن وهب ما كان تأملاً، وهو الذي "اجتمعت فيه فضائل [وجوه الحديث كلها] فكان بليغاً صحيحاً وجزلاً فصيحاً، وكان جدّاً صواباً، وحسنّاً حقّاً، وناقعاً صدقاً، وعند ذوي العقول مقبولاً، ولم يكن تكلفاً ولا فضولاً، فإذا اجتمع ذلك فيه ووضع قائله موضعه، وأتى به في حينه، وأصاب به مقصده فهو التام"²⁵. لقد نبّه ابن وهب إلى أمر غاية في الأهمية، وهو أنّ الشعر لا يخضع لقوانين الكلام العادي، وأنّ السرف والكذب والإحالة تُستملح وتُستحسن فيه دون غيره.

ويذكر قدامة تحت باب (العيوب العامة للمعاني) ما له صلة وثيقة بالإحالة: إذ إن السبب الذي من أجله عيبت المعاني يرجع أساساً إلى اختلال إحالتها وبعدها عن أن تطابق واقعها الخارجي، فمن تلك العيوب (فساد المقابلات)، وهو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر، إما على جهة الموافقة أو المخالفة، فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر أو يوافقه، مثال ذلك قول أبي عليّ القرشي [من الخفيف]:

يا ابن خير الأخياري من عبد شمسٍ أنت زين الدنيا وغيث الجنود

فليس قوله: (وغيث الجنود)، موافقاً لقوله: (زين الدنيا)، ولا مضاداً²⁶، ومنها كذلك (فساد التفسير)، و(الاستحالة والتناقض)²⁷، و(إيقاع الممتنع في المعاني في حالٍ ما يجوز وقوعه فيها)²⁸، والحق أن السبب الذي من أجله عيبت تلك المعاني يرجع إلى اختلال إحالتها إلى واقعها الخارجي، وعدم إمكان تصوّر صحتها في الذهن، ويبدو أن الخطأ فيها غير متعمد، فهي من القبيل المفارق الذي تنعدم فيه الإحالة، وننوّه إلى أن الفرق بين الخطأين المتعمد وغير المتعمد يكمن في أن الأول يكون غلطاً وقع فيه الشاعر ويمكن إعابته، في حين أن الآخريكون لغايةً فتيّةً جماليةً.

ومن الخطأ غير المتعمد أو الذي لا يُراد به تحقيق الغرابة بما هي مقابلٌ للمناسبة، وهو المسعى (غلطاً)، ما ذكره الأمدّي (371هـ) من قول أبي تمام [من البسيط]:

فَبَيَّنَ أَنَّهُ "غَلَطٌ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ كُلَّ بَلَدٍ يَضِيقُ بِأَهْلِهِ، وَلَيْسَ ضَيْقَتَهُ مِنْ جِهَةِ ضَيْقِ الْأَرْضِ"²⁹.

أما عن تعمد الغلو والإسراف، فنؤكد أن هذا هو مذهب أبي تمام الذي امتاز به، سواء كان فيه إمامًا متبوعًا، أم كان تابعًا لمسلم بن الوليد³⁰، غير أن الآمدي لاحظ أن مذهبه هذا جلب إليه سبة (قبح الاستعارات)³¹، وأرجع ذلك إلى أن أبا تمام رأى "أشياء يسيرةً من بعيد الاستعارات متفرقةً في أشعار القدماء... فاحتذاها، وأحبَّ الإبداع، والإغراب بإيراد أمثالها، فاحتطب، واستكثر منها"³²، وبالمقابل من هذا المذهب يقف مذهب البحري، وهو القائل حين سئل عن نفسه وعن أبي تمام: "كان أغوص على المعاني مّي، وأنا أقوم بعمود الشعر منه"³³، ويصف لنا الآمدي طريقة البحري بأنها تقوم على "حسن التأني، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يُورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله... والبلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظٍ سهلةٍ عذبةٍ مستعملةٍ سليمةٍ من التكلف، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصانًا يقف دون الغاية"³⁴، فشعرُ أبي تمام يتّصف بالمفارقة في الإحالات، في حين يكون شعر البحري متّسمًا بالمطابقة والإصابة.

ومن المعاني الشبيهة التي تدلّ على الإحالة دلالةً مباشرةً معنى (صحّة الدلالة)، وهو ما ذكره الرمانيّ (384هـ) في قوله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: 39]: "تشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمّن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحّة الدلالة"³⁵، كما نرى أن الخطابي (388هـ) يلتفت إلى ذلك المعنى في تفسيره لعددٍ من آي الذكر الحكيم مثل قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ [يوسف: 17]، فيقول مبرزًا فضل لفظة (أكل) على (افترس): "الافتراس معناه في فعل السَّبُعِ القتلُ فحسب، وأصل الفرس دقّ العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذنب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثرٍ باقٍ منه يشهد بصحّة ما ذكروه فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يُعبّر عنه إلا بالأكل، على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذنب وغيره من السباع"³⁶، ومثله قوله عن الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
[الأنفال: 1]: "لولم يستوفه بالصفة الجامعة له لم يُبن معه المراد"³⁷، فصحة دلالة الشيء تكمن في استيفائه بالصفة الجامعة له، وكذلك ما كان من القاضي الجرجاني (392هـ) حين انتقد ما أسماه بالمعنوي المدقق الذي لا علم له بالإعراب، ولا اتّسع له في اللغة، انتقده لإنكاره قول الشاعر [من مجزوء الكامل]:

..... فالغيثُ أبخلُ من سعى

بحجة "أن (من) لا تكون إلا لما يعقل، و(أفعل) لا يجري إلا على البعض من تلك الجملة... ف(من سعى) لا يقع إلا على عاقلٍ، والغيث ليس من هذه الجملة، [فرد القاضي أن] هذا الاعتراض يدلّ على تقصيرٍ شديدٍ في العلم بكلام العرب؛ لأن العرب إذا وصفت الشيء بصفة غيره استعارت له ألفاظه، وأجرته في العبارة مجراه، وإن كان لو انفرد انفرد عنه بصفته، وتميّز دونه بعبارة؛ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأْيُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4] لما وصفهما بالسجود جمعهما بالياء والنون، ولا يُجمع بهما إلا جنس من يعقل، أو ما خرج عن بابه لعل... لكنه لما أجرى على الكواكب صفة من يعقل ألحقهما في العبارة بهم"³⁸، فينكشف ردّه على المعارض عن عدّ وصف الشيء بالشيء يقتضي استعارة ألفاظه وإجرائه مجراه على وفق كلام العرب، وهنا يحكم القاضي على صحة الدلالة والإحالة خلافاً لما زعمه ما أسماه (المعنويين)، وثمة معني آخر يدلّ على الإحالة ويرادف سابقه، وهو (إصابة المعاني)، وكان أبو هلال العسكري (395هـ) ممّن ردّه كثيراً³⁹، وجعله من مقتضيات البلاغة التي ينبغي للمرء أن يتحلّى بها إلى جانب تحسّن اللفظ حتّى يوصف بأنه بليغ⁴⁰.

ونجد عند ابن رشيق (463هـ) تجليات الإحالة التي سبق أن ذكرها ابن وهب، لكن بتقسيم آخر جعل في شعبتين: الاقتصاد، والمبالغة، ويذكر ابن رشيق موقف بعض الحدّاق بنقد الشعر من تينك الشعبتين- ولعلّه أراد الأمدّي- ومفاده أن "المبالغة ربما أحالت المعنى، ولبّسته على السامع؛ فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره؛ لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه؛ لأنه ينبغي أن يكون من أهمّ أغراض الشاعر والمتكلّم أيضاً الإبانة والإفصاح، وتقريب المعنى على السامع... ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء، وقد

المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
رأيانهم احتالوا للكلام حتى قرّبوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها،
وبالتشكك في الشبهين، كما قال ذو الرمة [من الطويل]:

فيا ظبية الوعساء بين جلالٍ وبين النقا أنت أم أمّ سالمٍ

فلو أنه قال: (أنت أمّ سالم) على نفي الشك، بل لو قال: (أنت أحسن من الظبية) لما حلّ من القلوب محلّ التشكك⁴¹، ويردّ ابن رشيق بأن المبالغة ضرورٌ كثيرةٌ، وليست كلّها من النوع الملبس، فثمة التتميم والإيغال والتقصّي وترادف الصفات والغلوّ، فأما التتميم، فهو "أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتمّ به حسنه إلا أورده وأتى به: إمّا مبالغةً، وإمّا احتياطاً واحتراساً من التقصير، وينشدون بيت طرفه [من الكامل]:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهبي

لأن قوله: (غير مفسدها) تتميم للمعنى، واحتراس للديار من الفساد بكثرة المطر⁴²، وأمّا الإيغال، فهو "في القوافي خاصّة لا يعدوها... [ويُذكر أن الأصمعيّ سئل]: من أشعر الناس؟ قال: الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً، أو ينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى... نحو الأعشى إذ يقول [من البسيط]:

كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يضرّها وأوهى قرنه الوعل

فقد تمّ المثل بقوله: (وأوهى قرنه)، فلمّا احتاج إلى القافية قال: (الوعل)... لأنه ينحطّ من قنّة الجبل على قرنه فلا يضره⁴³، وأمّا التقصّي فهو "بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو بن الأيهم التغلبيّ [من الوافر]:

ونكرم جارنا ما دام فينا وتنبّعه الكرامة حيث كانا

فتقصّى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه⁴⁴. وأمّا ترادف الصفات، فيتجلّى في "تهويلٍ مع صحّة لفظٍ لا تحيلُ معنى، قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: 40]، وأمّا الغلوّ فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه ممّا بيّنت، ولو بطلت المبالغة كلّها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة، إلى كثيرٍ من محاسن الكلام: فمن أبيات المبالغة قول امرئ القيس [من المتقارب]:

كأن المدامَ وصوبَ الغمام وريحَ الخزامى ونشرَ القُطْرُ

يُعلِّ به بزْدُ أنيابها إذا غرَدَ الطائرُ المستحزُّ

فوصف فاهما بهذه الصفة سحرًا عند تغيير الأفواه بعد النوم، فكيف تظنّها في أول الليل؟!⁴⁵، ثم يذكر ابن رشيق رأيه في ما يحسن استعماله من الغلوّ الذي يُعدّ عنده ضربًا من المبالغة؛ فيقول: "إذا لم يجد الشاعر بدءًا من الإغراق [أي الغلوّ] لحبّه ذلك، ونزوع طبعه إليه، فليكن ذلك منه في الندرة، وبيتًا في القصيدة إن أفرط، ولا يجعل هجّيراهُ كما يفعل أبو الطيب. وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلّم بكاد) أو ما شاكلها، نحو (كأن ولو ولولا)، وما أشبه ذلك مما لم يناسب أبيات أبي الطيّب المتقدّم ذكرها في البشاعة، ألا ترى ما أعجب قول زهير [من البسيط]:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأحسابهم أو مجدهم قعدوا

فبلغ ما أراد من الإفراط، وبنى كلامه على صحّة... وقول أبي الطيّب [من الكامل]:

[و]عجبتُ من أرضٍ سحابُ أكفّهم من فوقها وصخورها لا تورقُ

... على أن في قول أبي الطيّب بعض الملاحظة والمخالطة لطبعه في حبّ الإفراط وقلة المبادرة فيه؛ إذ كان ممكنًا أن يقول: إن الصخور أورقت، ولغة القرآن أفصح اللغات، وأنت تسمع قول الله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: 20]، وقوله: ﴿إِذَا أُخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْذِبْهَا﴾ [النور: 40]، وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: 35]⁴⁶.

إن ابن رشيق يقف موقفًا معتدلاً من الغلوّ بين القبول التام والرفض التام؛ ذلك أنه اشترط له الندرة وأن تُخفّف وطأته، وتُقارب إحالته وصحة دلالاته باستعمال ألفاظ من قبيل (كاد، وكأن، ولو) وما شاكلها، فمثل هذه الألفاظ ترسم للذهن أن العلاقة بين ما تعنيه الألفاظ وبين مرجعها الذي تحيل عليه في الواقع الخارجي ليست هي المطابقة التامة، إنما هي المقاربة، ومتى كان هذا شأنها كانت مقبولة، ومن ثمّ بان ارتباط الغلوّ بالإحالة والمناسبة، وبان التوجّه التداولي عند ابن رشيق، التوجّه الذي وقّق بين ما كان مدعاة إلى خلاف امتدّ طويلاً بين من يدعو إلى المناسبة (المطابقة)، ومن يدعو إلى الغرابة (المفارقة).

خاتمة ونتائج:

المؤلف: د. عامر خليل الجراح عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب

سعيًا في هذا البحث إلى تسليط الضوء على جانب من الجوانب التداولية لبلاغتنا ونقدنا العربيين، وهو ذلك الذي يتمثل في الإحالة التي تؤدي مراعاتها إلى تحقيق الإفهام، والحق أن الغاية الأولية من تداولنا اللغة وإجرائنا خطابًا ما تتمثل في تحقيق التفاهم، كما أشرنا إلى نظرة التداوليين الغربيين، وتحديدًا أوستين وسيرل، إلى الإحالة وإسهامها في التفاهم، فلم يعنيا بتطابق الإحالة مع الواقع أو عدمه عنايتهما بتحقيق التفاهم ونجاحه، أمّا فيما يتعلّق بمناقشة الإحالة عند البلاغيين العرب، فذكرنا نماذج بيّنا فيها أثر الإحالة في الفهم من تأويلاتهم لأيّ من الذكر المبين وتحليلهم لأبياتٍ من الشعر.

ذكر البلاغيون والنقاد العرب ممّا يتعلّق بالإحالات ضروريًا من الوجوه البلاغية والنقدية، ترجع في مجملها إلى ثلاثة أشكال مُصنّفة بحسب إحالة المعنى إلى مرجعه: فأولها الاقتصاد الذي تكون فيه درجة الإحالة متوسطةً (المقاربة)، ويمكن أن يدخل فيه ما سُمّي التقصير عن الغايات، وثانيها المبالغة التي تصل فيها الإحالة إلى أعلى درجة (المطابقة)، ويدخل فيها الكلام على صحّة الدلالة في الوصف والتشبيه والمقابلة والتقسيم والتفسير وغيرها ممّا ذكرناه آنفًا، وآخر تلك الأشكال الغلوّ أو الإسراف الذي تكون فيه الإحالة في الظاهر منعدمةً (المفارقة)، وظهر ذلك في الحديث عن الخطأ المتعمّد (الغلط) وغير المتعمّد (الغلوّ)، بيد أن ابن رشيق عالِم المشكل الذي يتمثّل في اختلاف موقف البلاغيين من الغلوّ في الشعر بين الرفض والقبول بأن ينطق فيه الشاعر ب(كاد) أو ما شاكلها، نحو (كأن ولو لولا) وغيرها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج1، تح: السيد أحمد صقر، (القاهرة: ط4 دار المعارف، "د.ت").
2. أرمينكو، فرانسواز: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، (بيروت: مركز الإنماء القومي، "د.ت").
3. بلانشيه، فيليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، (اللاذقية: ط1 دار الحوار، 2007).
4. الجراح، عامر: الإجراءات التداولية التأثيرية في التراث البلاغيّ العربيّ بين التأويل والججاج والإقناع، (اسطنبول: ط1 دار سنابل، 2019م).
5. الجراح، عامر: التفكير البيانيّ عند العرب؛ قراءة تداولية، (اسطنبول: ط1 دار سنابل، 2019م).
6. الخطّابيّ: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلّام، (القاهرة: دار المعارف، 1968).

- المؤلف: د. عامر خليل الجراح
عنوان المقال: الإحالة التداولية عند البلاغيين والنقاد العرب
7. ديكرو، أوزوالد، وسشايفر، جان ماري: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، (الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان: ط2 المركز الثقافي العربي، 2007).
 8. ابن رشيقي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، ج2، حَقَّقَه وفَصَّلَه وعلَّقَ حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: ط5 دار الجيل، 1981).
 9. الرقمانّي: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حَقَّقَهَا وعلَّقَ عليها: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلّام، (القاهرة: ط3 دار المعارف، 1968).
 10. روبول، آن- وموشلار، جاك: التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، (بيروت- لبنان، الدار البيضاء- المغرب: ط1 المنظمة العربية للترجمة، 2003).
 11. ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، (دمشق: مطبعة اتحاد الكتاب العرب، 2005).
 12. ابن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد، ج6، تح: عبد المجيد الترحيني، (بيروت: ط1 دار الكتب العلمية، 1983).
 13. القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا-بيروت: ط1 المكتبة العصرية، 2006).
 14. ابن وهب الكاتب: البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، (بغداد: ط1 مطبعة العاني، 1967).
 15. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، (القاهرة، ط1 الجزيرة للنشر والتوزيع، 2006).
 16. أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا-بيروت: ط1 المكتبة العصرية، 2006)

الهوامش

¹ يُنظر: بلانشيه فيليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الجباشة، اللاذقية، ط1 دار الحوار، 2007. ص29.

² ديكرو أوزوالد- سشايفر جان ماري: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، ط2 المركز الثقافي العربي 2007. ص325. بتصريف يسير.

³ التحديدات الإشارية هي أسماء أو ضمائر (مهمة) تختلف إحالتها بحسب ظروف استعمالها مثل (الآن)، أو (هنا)، أو (أنا)، أو أسماء الإشارة... يُنظر: أرمينكو، فرانسواز: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، بيروت، مركز الإنماء القومي، (د.ت)، ص42.

⁴ بلانشيه، فيليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان: 119-120.

⁵ يُنظر: المرجع نفسه: 122-123-124.

⁶ يُنظر: المرجع نفسه: 133.

⁷ يُنظر: الجراح، عامر: التفكير البياني عند العرب؛ قراءة تداولية، اسطنبول، ط1 دار سنابل، 2019م.

⁸ يُنظر: الجراح، عامر: الإجراءات التداولية التأثرية في التراث البلاغي العربي بين التأويل والحجاج والإقناع، اسطنبول، ط1 دار سنابل، 2019م.

⁹ روبول، آن. وموشلار، جاك: التداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت، ط1 المنظمة العربية للترجمة، 2003م، ص 9.

¹⁰ الأخرج: الظليم، والمهذب: الشديد العدو، يقول إذا حركه بساقه أتى بجري شديد.

¹¹ الخيفانة: الجراد إذا صارت فيها خطوط مختلفة بياض وصفرة، شُهِت بها الفرس لسرعته.

¹² ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، دمشق، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، 2005. ص158- وما بعدها.

¹³ ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، ج6، تح: عبد المجيد الترحيني، بيروت، ط1 دار الكتب العلمية، 1983. ج6، ص178.

¹⁴ الشربيات: حياض تحفّ في أصول النخل من شقّ واحد ممتلئ ماء، وطحل: كبر.

¹⁵ المصدر السابق: 6/ 204-205-206.

¹⁶ يُنظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ط1 الجزيرة للنشر والتوزيع، 2006. ص120- وما بعدها.

¹⁷ المصدر نفسه: 125.

¹⁸ المصدر نفسه: 82.

¹⁹ يُنظر: المصدر نفسه: 80-81.

²⁰ المصدر نفسه: 82.

²¹ المصدر نفسه: 83.

²² يُنظر: ابن وهب الكاتب: البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد، ط1 مطبعة العاني، 1967. ص175.

²³ المصدر نفسه: 154-155. البيت لزهير من معلقته يصف فيه الطعائن.

²⁴ المصدر نفسه: 185-186.

²⁵ المصدر نفسه: 302.

²⁶ قدامة بن جعفر: نقد الشعر: 166.

²⁷ يُنظر: المصدر نفسه: 167.

²⁸ يُنظر: المصدر نفسه: 172.

²⁹ الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترّي، ج1، تح: السيد أحمد صقر، القاهرة، ط4 دار المعارف، (د.ت). ج1، ص203.

³⁰ المصدر نفسه: 1/ 13-14.

³¹ يُنظر: المصدر نفسه: 1/ 261.

³² المصدر نفسه: 1/ 271-272.

³³ المصدر نفسه: 1/ 12.

³⁴ المصدر نفسه: 1/ 423-424.

³⁵ الرّمانيّ: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، القاهرة، ط3 دار المعارف 1968. ص82.

³⁶ الخطّابيّ: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف، 1968. ص41.

³⁷ المصدر نفسه: 50.

³⁸ القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا-بيروت ، ط1 المكتبة العصرية، 2006. ص364.

³⁹ يُنظر: أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد الجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 المكتبة العصرية، صيدا-بيروت 2006. ص53-55 و65 و140.

⁴⁰ يُنظر: المصدر نفسه: 65.

⁴¹ ابن رشيق القيروانيّ: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، ج2، حقّقه وفصله وعلّق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت ، ط5 دار الجيل، 1981. ج2، ص53.

⁴² المصدر نفسه: 2/ 50.

⁴³ المصدر نفسه: 2/ 57.

⁴⁴ المصدر نفسه: 2/ 55.

⁴⁵ المصدر نفسه: 2/ 55.

⁴⁶ المصدر نفسه: 2/ 64-65.